القرى الناطقة بالسوريث في جنوب شرق تركيا

بقلم المستشرق الفرنسي البروفيسور برونو بوازات

الترجمة من الانكليزية: روبين بيت شموئيل

توطئة :

هذه المقالة تعود بالأصل الى محاضرة ألقاها الصديق البروفيسور برونو بوزات الذي كنت قد تعرفت عليه في زيارتي الثانية الى باريس في النصف الأول من 2008 بصحبة الزميل الآشوري جوزيف اليشوران، وكنت قد أجريت معه مقابلة تلفزيونية لصالح قناة سورويوتيفي باللغة الآرامية المحكية اي السوريث حيث كان المتحدث متمكناً منها وهو برأيي من أفضل المستشرقين الذين يجيدون السوريث نطقاً. يبدو انه تعلمها من زياراته العديدة الى تركيا والعراق ايضاً إذ عرفت منه انه كان قد زار قرية أرادن في مطلع السبعينيات. كانت المحاضرة قد خصصت للجمعية الاكاديمية الآشورية وقدمت في جامعة لويولا في شيكاغو في 27 نيسان 1986، حيث كان المحاضر بروفيسوراً زائراً في جامعة نوتردام / انديانا في الموسم الدراسي 1985- 1986. (المترجم)

بدءاً أود أن اعتذر لتقديمي هذه المحاضرة باللغة الانكليزية، لانه كما تعرفون أن الآرامية ليست لغتي الأم ولا أحد من أقاربي هو من الناطقين بالآرامية، فقد تعلمت لغتكم بجهودي الشخصية، وعليه لست متفوهاً متمكناً منها لتقديم حديث طويل ومسترسل بها.

سوف أتعامل مع بعض القرى الناطقة بالآرامية الحديثة (السوريث) التي تقع في شرقي تركيا والتي زرتها شخصياً في عدة مناسبات، وان عدم معرفة العالم الخارجي بوجود هذه القرى دفعني لاختيار هذا الموضوع. إن أفضل مجموعة تتكلم بالآرامية الحديثة في جنوب شرقي تركيا الحالية هي تلك التي تقطن طورعابدين، منطقة الهضاب في شمال شرق ماردين، والتي تحيط بالمدينة الصغيرة مِديات حيث يتكلم الطورعابديون لهجة آرامية اخرى تسمى بالطوريو وهم بغالبيتهم من اتباع كنيسة اليعاقبة، أي الكنيسة السريانية الغربية. لكن القرى التي نحن بصددها والتي تتكلم بالسوريث عوض الطورويو تقع في منطقة صغيرة الى الشرق من طورعابدين في الضفة الأخرى من نهر دجلة بجوار جبال حكاري. لغوياً، فان هذه القرى تتكلم بالسوريث: وهي اللهجة الاوسع والاكثر انتشاراً للآرامية الحديثة، ومذهبياً، تنتمي الى الكنيسة الكلدانية التي بالاصل كانت جزءاً من الكنيسة السريانية الشرقية، اتحدت مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ منتصف القرن السادس عشر.

كما هو موضح اعلاه، ان وجود بضعة الاف ناطق بالسوريث في منطقة حدود تركيا الحديثة هي حقيقة غير معروفة للكثير من الناس، إذ كان الاعتقاد العام هو ان الشعب الناطق بالسوريث في تركيا قد هاجر الى ايران ومن ثم الى العراق خلال الحرب العالمية الاولى. وعليه، فان الفكرة السائدة المترسخة في

أذهان البعض هي أن هذه الهجرة تتعلق فقط بما يسمى "العشائر الآشورية"، التي تتبع مذهبياً البطريرك مار شمعون، والذين تقع مناطقهم الى شرق القرى التي نحن بصددها. فهذه القرى لم تكن من اتباع مار شمعون الذي مقره في قودشانوس، فضلاً على ان ابناء هذه القرى لم يكونوا مستقلين مثل العشائر (عشيرت) الآشورية تحت سلطة المار شمعون، بل رعايا خاضعة الى سلطة بعض الآغوات الكرد الذين لهم الشكر في توفير الحماية لابناء هذه القرى حيث نجوا من مذابح الحرب العالمية الأولى (مذابح سيفو – المترجم) وتمكنوا من البقاء في المنطقة. وبالحقيقة، انه الى وقت قريب جداً، كان شرق تركيا هو المكان الوحيد الذي كان من الممكن ان ترى فيه جبليون ناطقون بالسوريث يمارسون حياتهم التقليدية. لكن هذا الوضع تغير سريعاً منذ أن انهمك اغلبهم في عملية هجرة واسعة الى فرنسا حيث يقطنون حالياً في الضواحي الشمالية من باريس. من المرجح ان عدداً قليلاً منهم سيمكث في أراض أجدادهم الأصلية لفترة طويلة.

موقع القرى:

تقع القرية الاولى، ارتيفان [1]، المعزولة نسبياً عن القرى الاخرى الى الشرق من مدينة سعرد الناطقة بالعربية ببضعة كيلومترات. نشر اوتو جاسترو كتاباً عن لهجة هذه القرية في عام 1971 في المانيا. تقع القرى الاخرى الى شرق مدينة الجزيرة على نهر دجلة وهي قريبة جداً من نقطة التقاء الحدود التركية السورية العراقية.

تقع المجموعة الاولى في الجنوب الشرقي حيث تحتل القرى أماكن مختلفة على امتداد الطريق من الجزيرة في تركيا الى زاخو في العراق، قرية حسانة في السهل، بسبينا في جهة الهضبة، وهربول في الجانب الآخر من الطريق. تقع المجموعة الثانية: ديران، ديجنيت وبيرنجي الى الشمال الشرقي على طول الطريق من الجزيرة الى شيرناك، والى الشرق الابعد على الطريق الرئيسي الى حكارى هناك قرى ايشّي وبازنيا التي تقع في الوادي فوق شابونا. اما المجموعة الثالثة: ميهري، فمن الممكن ان تصلها بعد عشر ساعات مشياً على الاقدام في المراعي العليا المطلة على قرية إيشّي. وتقع القرية الأخيرة، كيزنخ الى الشرق الأبعد وعلى بعد (15) كم الى الغرب من بيتيشباب.

وصف القرى:

لاعطاء فكرة عن المعالم الرئيسية لهذه القرى، سوف اختار اثنتين منهم، وهما هربول وايشّي. تقع قرية هربول التي يشبه تصميمها شبه دائري في منحدر جبلي مفتوح الى الجنوب من منطقة قريبة جداً من الحدود العراقية، بحيث من الممكن رؤية اضوية مدينة زاخو ليلاً من شرفات البيوت. فهي قرية جميلة جداً فيها شارع نموذجي واسع. البيوت مبنية من الحجر الصلد، ولها سطوح مستوية تستند على روافد من خشب

[1] اعتمدت في تدوين أسماء القرى المعنية على املاء الكاتب. تشير بعض المصادر الى أسماء اخرى لم يذكرها البروفيسور بوزات. من الأسماء المألوفة: بيسبن، هاربولي، كزنخ، ايشّي، بازنيي، مير، هوز، حسانه، هارتيف.

الحور، تستخدم السطوح للنوم في الصيف. تكون البيوت قريبة جداً من بعضها البعض وهي غالباً ما تكـــون ملائمة للتنقل من بيت الى آخر بإستخدام السطوح اكثر من استخدام الطرقات الضيقة.

حالياً، الكنيسة الرئيسية مدمرة، لكن هناك كنيسة صغيرة مكرسة لبني شموني قاومـــت الميـــل نحـــو التمدن. هذه الكنيسة التي لها هيكل بسيط من الحجر الصلب، تقع في ضواحي القرية وهي محاطة بمقبرة فـــي بساتين اشجار الجوز، ولها بابان يفتحان الى ساحة منبسطة الى الغرب، الباب الشمالي هو للنساء والجنـــوبي للرجال مصادفةً. لا تحتوي الكنيسة على ديكورات خاصة باستثناء صليبين بسيطين منقوشين فـــوق البـــابين. تقع هربول بالقرب من منجم فحم مستغل بكثافة، وعليه فمن السهولة الوصول الى القرية طالما توجد شاحنات عديدة تقصد المنجم قادمة من الجزيرة. يصل الطريق الى بساتين القرية لكن لا يدخل اليها. في الحقيقـــة، ان القرية والمنجم هما علمان مستقلان متميزان متجاوران مباشرة، لكن المنجم سيكون أخيراً الســـبب فـــي زوال القرية، فمن المرجح ان هربول سوف لن تُرى ثانية.

اما أيشّي المبنية على ضفاف وادي شاهق شديد الانحدار، فهي ليست مضغوطة مثل هربول وبيوتها، بالرغم من انهما متشابهان جداً الا ان بيوت هربول منفصلة اكثر. في اسفل القرية يوجد نهر وحيـــد يشـــغّل طاحونتين. يقطع النهر جسر وحيد، ويغذي المجرى البساتين والبيوت حتى يصل اخيراً الى الساحة الرئيســـية حيث يقع دار الكاهن وبناية الكنيسة الكبيرة المبنية من الحجر الصلد، صحن الكنيسة على شكل قـــوس واحـــد يتجه الى الشرق مع ضوء داخل اليه فقط من خلال ثلاثة فتحات في الجدار القريب. مـــن ســـوء الحـــظ، ان هيكل الجدار الذي يفصل المذبح عن صحن الكنيسة كان قد رمم حديثاً بطريقة غير جيدة، لا توجد في صحن الكنيسة كراسي وقنفات حيث يجلس المصلون على الأرض، النساء في الخلف والرجال بالقرب من المذبح.

الخدمات العامة في كلتا القريتين اما غير موجودة او بدائية جداً، فلا توجد طرق، ولا كهربـــاء، ولا منظومة مياه عدا النهر الذي يجري في القرية، ولا توجد منشأت صحية ملائمة. كان معظم القرويين اميـــين بلغتهم الام: وكان القس يعلّم الابجدية السريانية فقط لبعض الاطفال الذين كانوا يدرّبون ليكونوا شمامسة. فـــي توجد الوقت الحاضر في القريتين مدارس رسمية حكومية، لغة التعليم فيها هي اللغة التركية.

الملبس، والمأكل والحياة الاجتماعية:

إن الزى التقليدي لسكان القريتين كان مشابهاً لزي الجيران الكرد، فالرجـــال يلبســـون ســـراويل اســـطوانية، وقمصان مع اردان ضيقة وصدرية، جميعها مصنوعة من الصوف الملون بلون الجـــوز الطبيعـــي. الحـــزام الخارجي يحفظ اشياء مختلفة: سكين، ساعة، مسدس، كيس تبغ..الخ. الرأس مغطى بعصابة او اثنتين تلـــبس على الطريقة الكردية، او مع قلنسوة تركية (سدارة) او مع مزج الاثنين. تصنع الاحذية ذات الموديل القـــديم من جلد الخنزير وهي تعود الى الماضي القديم بسبب التأخر عن التمدن.

اما النساء فلهن بلوزات بأردان طويلة وتنورة فوق السراويل مصنوعة من قماش قطنـــي، يغطـــون شعرهن الطويل عموما بمنديل ابيض ويلبسن اقراطاً ثقيلة في آذانهن وخزامي ذهبي في انوفهن.

يبدأ النهار مبكراً تماماً مع فطور يحتوي على أرغفة طازجة مخبوزة في تنور مصنوع من الطين او على مقلاة حديد مقلوبة، إضافة الى زبد، عسل، لبن، جبن ابيض.. الخ. في الغذاء والعشاء، فان طعاماً مناسباً يجلب على صينية كبيرة مع صحن رئيسي من الرز، البرغل او المعكرونة، تقدم سوية مع بعض اللحم المسلوق والخضراوات. يبدأ بالأكل كل الرجال الموجودين في البيت وأحيانا بعض النساء الكبار بالسن، ومن ثم يأتي دور النساء والأطفال. في الحقيقة، فان المجتمع متميز بالطبقية الاجتماعية الراسخة. النساء دوماً منهمكات بمختلف الاعمال اليومية، وعلى العكس، الرجال ملتهون بنقاشات مستمرة وهم يدخنون سكائر مصنوعة محلياً، وبشرب عدة اقداح من الشاي الاسود. يتزوج القرويون في سن مبكرة، الذكور في سن الثامنة عشر والاناث في الخامسة عشر. تعتبر العزوبية حالة شاذة، وعليه فان كاهن القرية يتزوج ايضاً بالرغم من انتمائه الى المعتقد الكاثوليكي، ومن الطبيعي ان يكون للعائلة المثالية عدد كبير من الاطفال حيثما استطاعت الام ان تنجب.

النشاطات الاقتصادية:

مهنة القرويين هي رعي الاغنام وتربية الماعز، ويمكث الرجال بالقرب من القرية في الشتاء، لكن في نهاية نيسان وعندما تسمح الظروف الجوية، يقود كل أبناء القرية قطعانهم الى المراعي العالية حيث تتناسل الحيوانات وتلد. لكل قرية، مسيحية كانت ام مسلمة منطقة صيفية خاصة بها تسمى زوزان ، تقع بمسافة عدة ساعات عن القرية، يقضون فيها أشهر الصيف في خيم سوداء طويلة مصنوعة من شعر الماعز.

في الجزء الاكبر من النهار، يقود الرجال القطيع على طول المنحدرات الخطرة، واذا ابتعدوا عن المخيم كثيراً، يقضون الليل في العراء في حماية معاطفهم الثقيلة. للنساء دور اكثر اهمية ومسؤولية أكبر، فيجب عليهن ان يجمعن خشب اشجار البلوط، وحلب الغنم والماعز مرتين في اليوم، ونقل كتل كبيرة من الثلج على ظهورهن لعمل برك اصطناعية تكون هي المصدر الوحيد لمياه الشرب. اضافة على هذا، فان على النساء القيام بالعمل اليومي الوتيني في تهيئة الطعام، والخبز، وخض اللبن في جلد الماعز المدبوغ جيداً لهذه المهمة لاخراج الزبد وعمل الجبن والشنينة.

يرجع القرويون الى قراهم في شهر آب عندما يذوب الثلج لاجراء المقايضة السنوية، فيبيعون كل فحول القطيع في منطقة الجزيرة. وهذه هي الطريقة الوحيدة لعدد كبير منهم في حيازة مبالغ نقدية، والوقت المناسب لشراء الحاجيات اللازمة لديمومة الحياة خلال فصل الشتاء الطويل. يشترون على وجه الخصوص، الشاي، السكر، الرز والحبوب التي اما تسلق لعمل البرغل او تطحن في مطاحن مائية.

يقص الرجال شعر الغنم ويصبغون الصوف قبل خزن الأرزاق الشتائية، ثم تقوم النساء بغزل الصوف حتى عندما يكن في حالة استرخاء ووقت فراغ. في الحقيقة من الصعب او من النادر ان ترى النساء من دون المغزل، تجلس الفتيات في زاوية السطح او على غصن شجرة لتأمين ارتفاع ملائم للمغزل حيث يتدلى الى الاسفل فيطول خيط الصوف المراد غزله. عندما تنتهي هذه المرحلة يترك النسيج الى الرجال الذين يقضون معظم ايام الشتاء امام مغزلهم البدائي. هناك المحاصيل فقط في القرية، يزرع القرويون بعض

الفواكه والخضراوات ويربون الدجاج، النشاط الاقتصادي الرئيسي الاخر هو التجارة عبر الحدود القريبة المربحة تماماً لكنها خطرة جداً.

الهجرة:

كانت هذه القرى تتجه طبيعياً نحو الجنوب حيث الحدود بين تركيا والعراق والتي كانت تشكل خطاً إدارياً واضحاً بدون التأثير على حياة الناس المحليين حتى نهاية الستينات. لا زال اهل القرى يتذكرون الباعة المتجولين اليهود في زاخو الذين اعتادوا على زيارة قراهم قبل عام 1952. كانت الموصل المدينة الرئيسية بالنسبة لهذه القرى، واعتادوا على زيارة اقاربهم في المناطق البعيدة مثل بغداد بدون ان تكون في حوزتهم وثائق قانونية.

كان الشاب الذي ارسل الى اسطنبول في نهاية الخمسينات للدراسة في المدرسة الفرنسية هو أول شخص من هذه القرى يرحل الى الغرب، وكانت هذه بالنسبة اليه الفرصة المثالية طالما لم يكن يمتلك المعرفة الكافية بكلتا اللغتين الفرنسية والتركية.

تغيرت الظروف نحو الاسوأ خلال الخمسة عشر سنة الاخيرة لان الحدود اصبحت غير آمنة، والطريق بين الجزيرة وحكاري كان تحت الانشاء. وعندما تحسن فجاة نظام المواصلات في تركيا، أصبح الوصول الى استنبول اسهل من الوصول الى الموصل، فضلاً على ذلك انشأت المدارس في القرى واصبحت اللغة التركية هي اللغة المألوفة. كانت القرى مكتظة بالسكان، وكان من الطبيعي ان عدداً مهماً من قاطنيها اراد البحث عن فرصة أخرى للحياة في المدن الكبيرة. لكن البعض منهم لم يكن مقتنعاً حتى بحياتهم في استنبول وبالتالي قرروا الذهاب الى الغرب الابعد، والاستقرار في بلد مثل فرنسا، حيث تأسست لهم جالية سرعان ما تزداد كل سنة. كان لهذا الانفتاح على الغرب تأثيرٌ قويُ على فكر أبناء هذه القرى، وفي غضون السنتين الماضيتين، قرروا جماعياً ترك مواطنهم الأصلية في جنوب شرقي تركيا والهجرة الى فرنسا حيث افلحوا في الوصول اليها شرعياً كان ذلك او بطريقة غير شرعية، وبقيت فقط بضعة عوائل مسيحية في قرى الأباء والأجداد وحالياً فان معظم البيوت هناك يشغلها اكراد المنطقة.

كان السبب الذي اعطوه لهذه الهجرة ايديولوجياً، إذ ادعوا بانهم يريدون الاتصال والحياة مع المسيحيين. والان أدركوا مع التأسف الشديد بان فرنسا لا تفرق ولا تميز بينهم وبين المهاجرين الاتراك الآخرين. ومن الواضح بان هناك اسباباً اخرى، اقتصادية وسياسية: اقتصادياً، الحياة اصبحت اكثر صعوبة في هذه الجبال، وسياسياً فان الجيش التركي شدد قبضته على كردستان التركية.

يسكن معظم القرويين حالياً في مجاميع متجانسة في بيوت مستأجرة في منطقة صناعية مزدحمة وغير جذابة ومن دون الندم لمواطنهم الاصلية في الجبال، فقد وجدوا سبيلهم بشكل ما في المجتمع الفرنسي. يعمل الشباب في محلات صنع الحلويات مقلدين المهاجرين الترك، اما بالنسبة الى الكبار فهم عاطلون عن العمل غالباً. إن معظم الرجال فوق الاربعين ليس لهم دور اجتماعي، إذ انهم يعتمدون على عوائلهم في

معيشتهم، ولا يحاولون حتى تعلم اللغة الفرنسية. لكن من الواضح جداً أن النساء تبدو اكثر تكيفاً مع المجتمع المحيط بهن، وأسرع في تعلم اللغة الفرنسية بالرغم من انهن مقيدات ومشغولات باعمال بيتية روتينية.

من المبكر جداً، ملاحظة أي تغيير عميق في النظام الاجتماعي لمستعمراتهم أو لمحلات سكناهم الجديدة في ضواحي باريس حيث يقلدون حياتهم القروية. بلا شك، ان بعض التغييرات ستقع قريباً، والتي لم تأت على بالهم عندما اتخذوا قرار ترك قراهم والرحيل الى العالم المجهول مع عدم وجود أمل في العودة الى مواطن اجدادهم. انه من المتوقع بان هؤلاء المهاجرين وبالاخص الاجيال الشابة والاجيال القادمة سوف يتعلمون سريعاً اللغة الفرنسية ويتبنون الثقافة الفرنسية، وعليه فان وجودهم كمجموعة إثنية متميزة مهدد. ولكونهم مجرد أقلية صغيرة، ومن دون الحرص والحذر الشديد على لغتهم وثقافتهم: فان أندماجهم المبكر في المجتمع الفرنسي سوف يسهّل إنصهارهم.